# مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

# Orthodox Archdiocese of Beirut


## الرسالة

(عبرانيين ١٢: ١–١٠)

يا إخوةُ إذ يُحدِق بنا مِثْلُ هذه السحابةِ من الشهودِ فلنُلقِ عنَّا كلَّ ثقلٍ والخطيئةَ المحيطةَ بسهولةٍ بنا. ولنسابِق بالصبرِ في الجهادِ الذي أمامنا* ناظرينَ إلى رئيسِ الإيمانِ ومكمّله يسوعَ الذي بدَل السرورِ الموضوعِ أمامه تحمَّلَ الصليبَ مستخِفًّا بالخِزي وجلس عن يمينِ عرشِ الله* فتفكروا في الذي صبرَ على مثل هذه المخالفةِ له من الخُطاةِ لئلاَّ تَكِلُّوا وتَخوروا في نفوسِكم* فإنَّكم لم تقاوموا بعدُ حتى الدَّمِ في مجاهدَتِكم الخطيئة* وقد نسيتم التعزيةَ التي تخاطبكم كالبنينَ قائلةً يا بُنيَّ لا تحتقرْ تأديبَ الربِّ ولا تَخر إذا وبَّخك* فإنَّ الذي يحبُّه الربُّ يؤدِّبه ويجلدُ كلَّ ابنٍ يتَّخذه* فإن صبرتم على التأديبِ فإنَّ الله إنَّما يعاملِكم كالبنين*

## مديح شهداء سبسطية الأربعين

أصدر الإمبراطور القديس المعادل الرسل قسطنطين الكبير عام ٣١٣ براءة تمنح المسيحيين حرية دينية بالتساوي مع أتباع الديانات الوثنية الذين طالما صانت قوانين الدولة الرومانية حرية إقامتهم لشعائرهم الدينية. بيد أن ليسينيوس (٣٠٨ – ٣٢٤)، شريكه الوثني في المُلك، تابع اضطهاده لمسيحيّي المشرق، وقد حرص على قمع المسيحيين في جيشه خوفاً من أي محاولة للثورة أو التمرّد.

أما شهداء سبسطية الأربعون المجيدون، والذين تعيّد لهم كنيستنا المقدّسة في التاسع من شهر آذار، فهم فرقة من الجنود الرومانيين الذين استشهدوا العام ٣٢٠ لاعترافهم بإيمانهم بالمسيحية. لقد احتملوا موتاً وعذابات في غاية الشدّة والعنف من أجل إيمانهم، وذلك قرب مدينة سبسطية في جوار أرمينية نتيجةً لاضطهاد ليسينيوس.

أقدمُ سردٍ مكتوب لخبر استشهادهم قدّمه للكنيسة القديس باسيليوس الكبير رئيس أساقفة قيصرية كبادوكية (٣٧٠–٣٧٩)، في عظة ألقاها يوم تذكار الشهداء الأربعين. فإن تاريخ الاحتفال بهذه الذكرى يعود إلى المرحلة السابقة لعهد القديس باسيليوس في الأسقفية. أما الخطاب المدائحي هذا فقد ألقاه القديس باسيليوس خمسين أو ستين سنة بعد استشهادهم، الأمر الذي يؤكد تاريخية التفاصيل الدقيقة التي يرويها القديس في نصّه.

**العدد ١٠/٢٠١٤**
**الأحد ٩ آذار**
**الأحد الأول من الصوم**
**(أحد الأرثوذكسية)**
**تذكار شهداء سبسطية الأربعين**
**اللحن الرابع**
**إنجيل السَحَر الرابع**

بحسب القديس باسيليوس، حُكم على أربعين جندياً أشهروا إيمانهم بالمسيح بأن يقفوا عراةً على نهر متجمّد قرابة سبسطية في ليلة شتاء بارد، وذلك حتى تتجلّد أجسامهم فيموتون. ويتوسع القديس باسيليوس في وصف جرأة الجنود وجلادتهم أمام العذاب الرهيب والصقيع، الذي بعد أن يتأكّل أطرافهم بألم لا مثيل له، يضرب جهاز الإنسان العصبي ويشل دورته

وأيُّ ابنٍ لا يؤدِّبُه أبوهُ* وإن كنتم بمعزلٍ عن التأديبِ الذي اشترك فيهِ الجميعُ فأنتم إذاً نغولٌ لا بنون* وأيضاً قد كان آباءُ أجسادِنا يؤدّبونَنا ونحن نَهابهم فهلاً نخضعُ بالأحرى جدًّا لأبي الأرواح فنحيا* فإنَّهم أدَّبونا لأيَّامٍ قليلةٍ وعلى هواهم. أمَّا هو فلِمنفعتنا حتى نشتركَ في قداسته.

## الإنجيل

(يو ١: ٤٤–٥١)

في ذلك الزمان أراد يسوعُ الخروجَ إلى الجليل فوجد فيلِبُّسَ فقال لهُ اتبعني* وكان فيلِبُّسُ من بيتَ صيدا من مدينة أندراوسَ وبطرس* فوجد فيلِبُّسُ نَثَنَائيلَ فقال لهُ إنَّ الذي كَتَبَ عنه موسى في الناموس والأنبياءِ قد وجدناهُ وهو يسوعُ ابنُ يوسف الذي من الناصرة* فقال لهُ نَثَنَائيلُ أمِنَ الناصرةِ يمكنُ أن يكونَ شيءٌ صالح* فقال لهُ فيلِبُّسُ تعالَ وانظرْ* فرأى يسوعُ نَثَنائيلَ مقبلاً إليهِ فقال عنهُ هوذا إسرائيليٌّ حقًّا لا غِشَّ فيه* فقال لهُ نَثَنائيلُ مِنْ أينَ تعرفني. أجاب يسوعُ وقال لهُ قبل أن يدعُوَك فيلِبُّسُ وأنت الدموية الأمر الذي يؤدي إلى موت حتمي يلي عذاباً وألماً لا مثيل لهما. يشدّد القديس على مواجهتهم الشهمة للحاكم الروماني وموقفهم الصلب إزاء محاولته ثنيهم، بكلّ الأساليب والمغريات ثم بالوعيد والتهديد، عن عزمهم المقدس.

ويخبرنا القديس باسيليوس أن واحداً من المجاهدين الأربعين تردّد أمام الأوجاع غير المحتملة فانسحب من حلبة الصراع منكراً آلامه، ولكن أحد الحرّاس الموكلين مراقبتهم عاين نوراً باهراً فوق رؤوسهم وأربعين إكليلاً نازلاً من السماء لتتويج الشهداء، فسارع بجرأة إلى إعلان إيمانه بالمسيح وطرح بذلته العسكرية وسلاحه جانباً للإنضمام على الفور إلى قافلة المجاهدين من أجل المسيح، فبقي عدد الأربعين كاملاً.

عند بزوغ الفجر نزل الحراس وجمعوا أجساد الجنود المتجمدة، على الرغم من أن بعضاً منها كان لا يزال يظهر علامات الحياة، وأحرقوها في أتون كبير ثم ألقوا العظام التي لم تأكلها النيران في نهر جارف لكي لا يأخذها المسيحيون ويجعلوا منها أداةً للإكرام والعبادة.

بعد ثلاثة أيام ظهر الشهداء لبطرس أسقف سبسطية وطلبوا منه دفن بقاياهم. فكان أن توجه الأسقف ليلاً مع بعض الكهنة إلى النهر وجمع هذه البقايا ودفنها بوقار كبير.

ولما أنهى القديس قسطنطين اضطهاد المسيحيين في هذه المقاطعة الرومانية، وُزعَت بقايا القديسين على عددٍ من المدن. فانتشر على أثر ذلك إكرامهم في العالم المسيحي، وبنيت الكنائس على اسمهم في أكثر من مكان. إحدى هذه الكنائس بنيت في كبادوكية، وفي هذه الكنيسة بالذات ألقى القديس باسيليوس عظته الشهيرة.

وكان القديس غريغوريوس اللاهوتي ممن أحبوا الشهداء الأربعين وأحيوا ذكراهم والتصقوا بطلب شفاعتهم. وقد خصّهم بإثنين من عظاته، وعند وفاة والديه سجّاهما في الكنيسة في قبرٍ جعله إلى جانب رفات هؤلاء الشهداء. كذلك القديس أفرام السرياني كتب لهم خطاباً مدائحيًّا ملأ العالم الناطق باللغة السريانية بشذا فضيلتهم وعطر استشهادهم الذي انتقل أيضاً إلى الغرب المسيحي وأفعم المسكونة رجاءً ونوراً.

هذا ويصف المؤرخ سوزومينوس، شاهد العيان، جهود الإمبراطورة بوليخيريا الحثيثة، من أجل جلب جزء من رفات الشهداء الأربعين إلى القسطنطينية، والاحتفال البهي والإكرام الكبير اللذين عمّا أرجاء المدينة المتملّكة لدى دخول موكب زيّاح رفات الشهداء القديسين الأربعين إليها.

## صلاة النوم الكبرى

تُكثَّف الصلوات خلال زمن الصوم الأربعيني المقدّس، إلاّ أنَّ الأكثر ممارسةً بين المؤمنين هي صلاة النوم الكبرى التي نرنم خلالها «يا ربَّ القوات كن معنا فإنَّه ليس لنا في الأحزان معين سواك يا ربَّ القوات ارحمنا»، والتي نقيمها من الإثنين إلى الخميس طيلة أسابيع الصوم الكبير المقدّس، في حين

تحتَ التينةِ رأيتُك* أجابَ نَثَنَائيلُ وقال لهُ يا معلّمُ أنت ابنُ اللـه أنتَ مَلِكُ إسرائيل* أجابَ يسوعُ وقال لهُ لأنّي قلتُ لك إنّي رأيتُكَ تحت التينة آمنتَ. إنَّك ستُعاين أعظمَ من هذا* وقال لهُ الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم إنَّكم مِنَ الآن ترونَ السماءَ مفتوحةً، وملائكةَ اللـه يصعدون وينزِلون على ابن البشر.

## تأمل

لست أجهل ما يفرضه هذا الاحتفال من حق الشهيد علينا بالمديح العظيم. وعلى ذلك فإني أشعر بضعفي لأن الموقف يستلزم الكلام اللائق بهذا الاجتماع، وتحقيق رجاء المجتمعين. وبما أننا اليوم نحتفل بذكرى من ذكريات الشهداء فيجدر بنا، والأسماع مصغية، والأذهان يقظة أن نتكلم ما يليق بالشهيد الذي يجمعنا الشوق إليه في هذا الاحتفال البهج. أحس بكم ابناءً يطلبون الكثير في مديح آبائهم الشهداء ولا يقبلون بالشيء القليل لئلا ننتقص من حق الممدوح العظيم وتتعرض منزلته الكبرى للهوان في أعينهم. كلما عظمت الرغبة في مدح الشهيد، ركب الخطيب مركباً خشناً. فما العمل ترتل خدمة المديح لوالدة الإله مساء الجمعة.

صلاة النوم عبارة عن صلاة شكريَّة كان المسيحيون الأوائل يمارسونها في القرون الأولى، ثم طُوِّرَت وأُدخلت ضمن الصلوات الكنسيَّة اليوميَّة. تجدر الإشارة إلى أنَّ صلاة النوم الكبرى كانت تقام في البارامون، أي في اليوم الذي يسبق عيديّ الميلاد والظهور الإلهي. هذا الترتيب ما زال متّبعاً في أديرة الجبل المقدس آثوس وفي الكنائس السلافيّة. وفي مرحلة متقدمة أصبحت هذه الصلاة تُقام في آحاد الصوم الأربعيني المقدّس وفي فترة صوم الميلاد وصوم الرسل. يذكر القديس سمعان التسالونيكي في حديثه عن الخِدَم المقدسة أنّه كان هناك ترتيب واحد لصلاة النوم وهو صلاة النوم الكبرى، وهذا مذكور في تيبيكون القديس سابا. إلاّ أنّه في القرن الثالث عشر، ظهر اختصار لصلاة النوم الكبرى المعروف بصلاة النوم الصغرى، والتي أصبح المؤمنون يتلونها يوميًّا، في حين انتقلت صلاة النوم الكبرى إلى أيام الصوم الكبير.

يتكلّم القديس باسيليوس الكبير في قانونه الثامن والثلاثين من تقليد القديسين على اجتماع المؤمنين بعد العشاء ليصلّوا صلاة النوم التي سمَّاها صلاة خاتمة النهار. ويُعتبر القديس باسيليوس أول مَن أدخل صلاة النوم في قانون الصلوات التي رتّبها لرهبانه وعنهم أخذ المؤمنون هذه الفريضة. يوصي القديس إكليمنضس الإسكندري بإقامة هذه الصلاة الشكريَّة قائلاً: «إنَّه لَعَملٌ مقدّس أن نشكر الله لأجل كلِّ شيء قبل الذهاب إلى النوم، لكوننا تمتَّعنا بجودته ومحبَّته للبشر، فنذهب إلى النوم مع الله بالروح».

تتألَّف هذه الخدمة من ثلاثة أجزاء. في الجزء الأول يفكّر الإنسان بما فعله في نهاره من الأفكار والأقوال والأعمال «أحمُّ في كل ليلة سريري وبدموعي أبلُّ فراشي» (مز ٦:٦) «بالسلامة أرقد وأنام» (مز ٨:٤)، كما يسلِّم نفسه للعناية الإلهيَّة «إليك يا رب رفعت نفسي، إلهي عليك توكلت» (مز ٢٤: ٣٠)، ويطلب إلى الله ألاّ ينام نوم الخطيئة بل أن يُنهضه سالماً كي يسلك في وصاياه «أنر عيني لئلا أنام إلى الوفاة». نطلب من خلال مزامير هذا الجزء غفران الخطايا، لنتحرّر من ضغط الخطيئة وننال نوماً خفيفاً وهادئاً وخالياً من تجارب الليل الرديئة. هذا، ونعلن منذ البداية أن «الله معنا»، وتالياً جهادنا ضد الظلمة وموت الخطيئة سيثمر بنور الرب الشارق لنهزم مكائد الشياطين. ينتهي الجزء الأول بإفشين للقديس باسيليوس الكبير: «يا رب يا رب يا مَن أنقذتنا من كل سهم يطير في النهار...».

يُظهر لنا الجزء الثاني من صلاة النوم أنّ التوبة هي طريق القداسة. عندما نعي ضعفنا وندرك ألاّ خلاص لنا إلا بالرجوع إلى الله من خلال التوبة، عندئذٍ سيسامحنا على الرغم من كل ضعفاتنا وسقطاتنا. يتجلّى هذا الأمر في صلاة منسى ملك اليهودية، التي كتبها عندما ندم على إدخال عبادة الأوثان إلى اليهودية: «أيها الرب الضابط الكل... التوَّاب على مساوئ الناس... وضعت التوبة لي أنا الخاطئ فإنّي

كيف يمكن أن نتجاوب مع رغبتكم حتى نفي بواجب المديح من دون التقليل من سمو الممدوح وحتى لا تخيب آمالكم فتعودوا ورجاؤكم في حرارته ودفئه؟ أرجو أن تعودوا إذاً إلى ما اكتنزتم من تذكر حياة الشهيد وتستخرجوا منه ما انطبع في عقولكم، وما حملتموه في طريقكم إلى هنا وأن تجسدوه فرحاً، وأن تعيشوا لحظات الأمل والبهجة مع أنفسكم، وأن نكون جميعاً في حالة صلاة دائمة مرددين اسم الشهيد ومستدعينه في ساعة الحاجة هذه.

مديح الشهيد هو هذه المواهب الروحية الغنية. المدائح يجب ألا تكون غريبة عن طبيعة الشهيد وخارجة عنه. لا نمدحه بكلام غريب كما يفعل الآخرون. الحقيقة تفترض أن يكون المديح متوافقاً مع طبيعة الشخص. فالحصان لا يكون سريعاً لأن أباه كان يتصف بالسرعة. كذلك مديح الإنسان لا يرتكز إلا على الإمكانات التي فيه، وعلى الأعمال النابعة من طبيعته الفاضلة. ماذا يفيد الإبن مجد أبيه؟ كذلك الشهيد لم يأخذ مجده من غيره. هو الذي أشعل شرارة شهرة حياته العظيمة المستقبلة.

**القديس باسيليوس الكبير**

قد أخطأت أكثر من عدد رمل البحر. قد تكاثرت آثامي يا رب... ولست أنا بأهل أن أتفرَّس وأنظر علوَّ السماء من كثرة ظلمي... الآن أحني ركبة قلبي مبتهلاً إلى صلاحك... اغفر لي يا رب اغفر لي ولا تهلكني بآثامي... لأنّك أنت هو الله إله التائبين...».

تذكّرنا مزامير الجزء الثالث من الصلاة المليئة بالمعاني الروحيّة، بنزول المسيح إلى الجحيم لينقذ نفوس الصدّيقين المكبَّلين والأبرار المنتظرين مجيء المخلّص «لأنّ العدو قد اضطهد نفسي وأذلَّ إلى الأرض حياتي، وأجلسني في الظلمات مثل الموتى منذ الدهر وأضجر عليَّ روحي واضطرب قلبي في داخلي» (مز ١٤٢: ٣-٤). ومن خلال المجدلة «المجد لك يا مظهر النور...» تُظهر الكنيسة فرحها وشكرها وتمجيدها للمسيح الغالب الموت. تتجلّى ثقة الكنيسة بمعونة الله من خلال ترنيم طروبارية: «يا رب القوات كن معنا...». بعدها تحثّنا الكنيسة على الصبر والتدرُّب على التوبة وطلب الرحمة من خلال الأربعين صوتاً «يا رب ارحم»، تليها صلاة التوبة للقديس أفرام السرياني التي تلخِّص مسيرة التوبة. نطلب أولاً أن يرسل لنا الله نعمة لنتطهَّر من البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطال، كما نطلب أن ينعم علينا بروح العفة والصبر والتواضع والمحبة، لنصل إلى قمة التوبة حيث نعترف بخطايانا من دون أن ندين الآخرين. أمَّا السجدات الكبيرة التي نقوم بها أثناء تلاوة صلاة التوبة فتدلّ على خضوعنا لله واعترافنا بذنوبنا، وأنّنا وإن سقطنا بخطايانا فسننهض بمعونته.

تنتهي الصلاة بإفشين لربنا يسوع المسيح «وأعطنا أيها السيّد إذ نحن منطلقون إلى النوم...» فيه نسلّم ذواتنا قبل النوم إلى ربنا ومخلّصنا ليحفظنا أنقياء طالبين منه الراحة لأجسادنا لننهض في اليوم التالي إلى أعمالنا ناجين من نوم الخطيئة وشهوات الليل الرديئة، «لنسبِّح ونبارك ونمجِّد اسمك الكليَّ الإكرام والعظيم الجلال أيها الآب والإبن والروح القدس الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين، آمين».

## في السجود للأيقونات

«لمّا كان البعض يلومنا لسجودنا لصورتَي المخلص وسيدتنا مريم العذراء وتكريمنا إياهما، وكذلك صوَر سائر القديسين وخدّام المسيح، فليفطن هؤلاء أن الله قد صنع الإنسان منذ البدء على صورته الخاصة، وإلا ما هو السبب في سجود بعضنا لبعض سوى أننا مصنوعون على صورة الّله؟ وعلى ما يقوله باسيليوس المتعمّق كثيراً في الإلهيّات: «إن إكرام الأيقونة يعود إلى مَن تمثّله في الأصل»، والمثال هو ما ترسمه الصورة، وهي مشتقّة عنه. فلمن يا ترى كان يسجد الشعب الموسوي حول الخباء الحاوي صورة السموات ورمزها؟ أو بالأحرى صورة الخليقة كلها؟ وهذا هو قول الله لموسى:«وانظر فاصنعها على مثالها الذي أُظهِرَ لك في الجبل» (خر ٢٥: ٤٠، عب ٨:٥). والكاروبان المظلّلان تابوت العهد، ألم يكونا صنع أيدي الناس؟ وماذا كان هيكل أورشليم الشهير؟ ألم يكن من صنع الأيدي وقد أتقن الناس زخرفته؟»

**القديس يوحنا الدمشقي**